حفريات راس شمرة

الاكتشافات الاثرية والكتابية

بقلم الاب رينه فولّه اليسوعي

تمهيد

لقد عثر السيد كلود شيفر (Schaeffer) في السنة ١٩٢٩ على انار مدينة اوغاريت عند ما قام ومعه ج. شنيه (Chenêt) بتنقيبات في المكان المعروف براس شمرة على ساحل سوريا تجاه جزيرة قبرس.

وبدا اكتشافه كبير الشان منذ اول وهلة لانه جاء يسد فراغاً في ما لدينا من المعلومات عن الشرق مهد الكتاب المقدس.

ان مواقع الحفريات الكبرى المعروفة حتى الآن على ضفاف الفرات والدجلة في العراق ، والهاليس (Halys) في تركيا والنيل في مصر ، لم تضن علينا بالافصاح عن حقيقة ماضيها بل كشفت لنا عن كثير من اسرارها الدفينة بلسان الآثار ولسان اللغات . وكلا اللسانين فياض مسهب حتى الافراط والثرثرة.

اما كنعان بمعناه الواسع اي بما فيه فنيقيا وسوريا وفلسطين فانه قد لزم الصمت نسبيًا ، فما افصح عن نفسه الا بلسان الآثار وما يتماحبها من تماثيل وخزفيات . وكانت الكتابات نزرة فضلًا عن انها قليلة التنوع . فترتب على ذلك ان قام غيره يتكلم بالنيابة عنه. وحسبنا ان نذكر بوغاز كوي(Bogaz-Köy) والعمارنة . لكن هؤلاء شهود من الخارج الى حد ، واكبر اهتمامهم منصرف الى الامور السياسية والعسكرية . اما الآن وقد استظهرنا دفائن راس شمرة فانا قد حصلنا على وثائق جديدة فينيقية .

تمدنا حفريات راس شمرة ، علاوة على المستندات المتعلقة بكل من حضارات الشرق الادنى الكبرى ، بشهادة خاصة شبه شخصية : اذ هي تتألف من كتابة ومن لغة ومن آداب وكل من الثلاثة طريف. فالآداب تتحفنا بنصوص

مروعة وهي تؤيد حدثاً ومتصلة بسياق معاصر هي من دور ثقافية ودينية . والى هذا فانها تكاد تكون في مجموعها معاصرة لمستندات بوغاز كوي والعمرنة وتطلعنا على حالة الحضارة في كنعان قبيل استيطان العبرانيين ارض فلسطين.

لذلك نرى انه اذا كانت الاكتشافات الاخرى تعدل راس شمرة شأناً او تفوقها في نظر الاخصائي في التاريخ او الحقوق او الفنون ، فانه لا يعدلها اكتشاف في الآونة الاخيرة في نظر الباحث في الكتاب المقدس وفي علاقات هذا الكتاب بالمحيط الذي تكون فيه .

o

١ ــ المكتشفات الاثرية

ان الحفريات التي بوشرت في سنة ١٩٢٩ في راس شمرة نفسها وفي المينا البيضا قد استغرقت احد عشر شوطاً حتى قيام الحرب الاخيرة . وقد استؤنف التنقيب فيها مؤخراً . ونحن ذاكرون فيما يلي اهم النتائج الاثرية :

لقد تبين كلود شيفر فيها خمس طبقات هي من اسفل الى على :

الطبقة الخامسة : وهي اقدم طبقة وتعود الى اول العصر الحجري الحديث (الالف ٥و٦ ق.م.) . وهي تنقسم الى قسمين : طبقة بعمق ١٨ متراً : فيها ظران ومواقد نار . فشهادة راس شمرة تؤيد شهادة المواقع المجاورة وتدل على ان المنطقة كانت « تمج بحياة بدائية قوية » (Contenau)، وطبقة بعمق ١٦ — ١٧ متراً : فيها فخاريات مماثلة لجگر بزار (Chagar-Bazar) في ناحية الخابور ، وتل جُديدة (tell-Judeideh) على العاصي وسكجه گوزى (Sakçe-Gözü) في سوريا ، واريحا ذات العصر الحجري الحديث في فلسطين . فيستدل من هذا ان راس شمرة كانت جزءا من مجموع واسع تألفت منه اقدم حضارة في فجر التاريخ وشملت الشرق الادنى اجمع .

الطبقة الرابعة : بعمق ١٦—١٢ متراً . (الالف ٤): فيها فخار مطلي بالاصباغ او خزف من نمط خزف تل حلف وكركميش وجگر بزار وارْبجيَة (Arpachiyah) (في العراق) . وازدهار هذا النمط من الخزف الدقيق الصنع والجميل المنظر

مرتبط بحضارة الحوريين (Hurrites) كما نبه الى ذلك شيفر .

الطبقة الثالثة : (النصف الاول — اواسط الالف الثالث) فالحرفيات العائدة الى ما قبل التاريخ يمثل القديم منها الأريجيّة والعُبَيْد (Obeid) ،ويمثل الحديث منها جُدَّة وَتَصر(Contenau) . فالبلاد متأثرة بنفوذ ما بين النهرين وهي في حالة انحطاط بادٍ . والارجح في نظر شيفر ان الانحطاط نتيجة للغزوات والهجرات التي حصلت في اواسط الالف الثالث واشهرها هجرة الگوتيين.

ونجد في اواخر الحقبة مدافن ذات خزف كنعاني فيجوز لنا ان نستدل به على قدوم الفينيقيين آنذاك الى المدينة .

الطبقة الثانية : (اواخر الالف ٣ والالف ٢).

هذه هي الحقبة الثقافية الكبرى في اوغاريت . المدينة تعاني من الوجهة السياسية صعاباً كبارًا في سبيل الاحتفاظ بالاستقلال وحرية التصرف بين الدول الكبرى ، لكنها سوق تجارية عجيبة الرواج وملتقى لمختلف الحضارات على انها لها طابع خاص بالرغم من تأثير البلدان الكبيرة المتحضرة فيها . فيبدو فيها في اول هذه الحقبة اثر مصر التي هي في عنفوان وثبتها ، اذ تبوأت السلالة الثانية عشرة الحكم ، وكذلك اثر ايجا (Egée) واقريطش (Crète) (المينوي الاوسط : Minoen moyen). اما بعد ذلك فالنفوذ يؤول الى الحوريين والحثيين.

فهذا عصر الازدهار الاكبر وقد خلف لنا مستندات مدونة في مختلف لغات البلدان التي كان لها اثر في اوغاريت ونصوصاً ادبية في لغة اوغاريت نفسها . لكنها حقبة مرتبكة مربكة ايضاً فالمدينة تتهدم حوالى القرن الـ ١٩ ق.م. بزلزال الارض وبطغيان البحر عليها، وتضطرها المنافسة والحروب بين مصر والحثيين الى التلطف والمرونة في السياسة .

الطبقة الاخيرة : لما عقب الهدوء الحروبَ الكبرى اصبحت اوغاريت تحت سلطان مصر وهاجر اليها طائفة ميسينية (émigration mycénienne) كبيرة . فتبدو كأنها قد قطعت العلاقات مع ما وراءها من البلدان، اي مع بين النهرين والحثيين . وتلمس فيها اثار نهضة جديدة لكنها اضيق حدوداً من الحضارة « الطلق » في الحقبة السابقة .

ثم تلتها موجة جديدة من الاضطرابات تعود الى هجرة شعوب البحر . فتفوض الامبراطوريات كبرى وينشب القتال من كل جانب والغزو من كل صوب (وما حرب طروادة الا حادثة من هذا الاصطراع) فتدخل اوغاريت في خبر كان . وتخلفها بعد حين من الزمن على مسافة ١٢ كيلومترا في الجنوب لاوديقيا ، اللاذقية الحالية .

٢ ــ الكتابات المكتشفة

تلفت النظر الى ان في اوغاريت اشياء ليست اوغاريتية فنيا نصوص قد وُضعت بلغات وبكتابات مختلفة من سُومرية وأكدية وحثية وحُورية ومصرية. وهناك أثبات او جداول معجمية تيسر لنا الانتقال من احدى هذه اللغات الى لغة اخرى كالثبت السومري — الاكدي — الحوري ، وهذا دليل واضح على ان السكان كانوا لفيفاً من اقوام عدة . ثم ان الابجدية الاوغاريتية لم ينحصر استعمالها في تدوين نصوص موضوعة باللغة الاوغاريتية دون سواها لان لدينا بعض النصوص الأكدية وقد رُقمت بحروف هذه الابجدية .

على ان الاكتشاف الاكبر بين الكتابات هو اكتشاف لغة اوغاريتية بالمعنى الحصري مدونة بابجدية خاصة وتطلعنا على اداب طريفة . وسنعالج الآن اللغة والابجدية ونرجئ الآداب الى بحث آخر .

اللغة الاوغاريتية : هي فرع من السامية . فالفاظها وصرفها ونحوها يدل دلالة واضحة على انها من السامية — الغربية ، وتدخل في نطاقها الكنعانية والعبرانية ، وهي على مثال الكنعانية على الاخص مع ما فيها من بعض الخصائص التي تقربها من العربية الجنوبية خاصة ومن الأكدية الى حد . فقام بين الاختصاصيين جدال ونزاع حتى يتضبطوا مكانها من اللغة السامية . وانا على رأي الاب دي فو (de Vaux) القائل انها غصن من الفرع الغربي مندمج في المجموع الكنعاني او باختصار انها من اوائل الفينيقية . ويجوز ان نقول بقليل من المبالغة انها من بداية العبرانية .

ومجموع الحروف الصامتة يحتل مقاماً وسطاً بين العربية (وهي اللغة الاشد

احتفاظاً لقديم الحروف والاوسع تمييزاً وتنويعاً للحروف بعضها عن بعض) وبين سائر اللغات السامية . فنجد مثلاً ان الفرق بين ش وث (ومقابلها في العربية : س وث) قائم ثابت في الاوغاريتية ، لكن الفرق بين ص وض الثابت في العربية قد سقط في الاوغاريتية .

الابجدية الاوغاريتية : من المعلوم ان انواع الكتابات التي نقلت لنا نتاج الحضارات الكبيرة كالسومرية والاشورية — البابلية والحثية والمصرية ، فضلاً عن الصينية ، كانت مرتكزة على رموز المعاني كان يُرفق بها علامات تمثل مقاطع لفظية تزيد او تقل عدداً وفقاً للحاجة . وكثيراً ما كانت هذه المقاطع تُربى على الرموز الاساسيّة . وربما اضافوا الى العنصرين السابقين « مَداعِم » القراءة الصحيحة ، من ذلك علامات اسم الجنس وعلامات استكمال النطق . فمن السهل اذاً تصور ما يعترض القارئ من عقبات والتباس وحيرة . وبديهي ان اساليب على هذا الجانب من التعقيد ما كان من السهل ان يستمكن منها الا اصحاب المهنة ، الكتبة انفسهم . وهؤلاء ميالون بالطبع الى جعلها سراً محفوظاً لهم فيساعدهم على توطيد سلطانهم وتعزيز شأن طبقتهم المنطوية على نفسها .

وبما ان اساليب الكتابة الرمزية لم تكن قط صرفة بل كانت تصاحبها ابداً بعض مقاطع هجائية فكان من الطبيعي ان تمهد السبيل الى تحليل الصوات والى استنباط ادوات تدوين جديدة كلها او معظمها هجائية اي الى إحداث ابجديات . ولقد قامت في الواقع في المناطق الغربية من الشرق الادنى بين القرن العشرين والقرن الثاني عشر سلسلة محاولات من هذا النوع قد هدانا الحظ الى العثور على البعض منها . فابجدية راس شمرة الاوغاريتية ليست سوى حلقة من هذه السلسلة — وميزتها الفلوقة انها طريقة ابجدية مستخاصة من الاوضاع المسمارية تسهيلاً للرقم في الواح الطين . فجد هذا القيد من مرونتها وجعل الناس يميلون عنها الى ابجديات ترتكز على اوضاع هيئة سائغة . ولا ترقم هذه الابجدية سوى الحروف الصامتة ، شأنها في هذا الباب شأن منافساتها . انما تخرج عن هذه القاعدة في تدوين الالف . ففيها ثلاث ألفات

... مشكلات شائكة ... لكني ارى انه لم يكن قد تم عند استخلاص الهمزة المعروفة انهم كانوا يعتبرون الأمات الثلاث ثلاثة حروف متمايزة . واذا صح هذا الرأي استطعنا ان نقول ان الابجدية اوغاريت لا ترقم الا الحروف الصامتة في غير استثناء . يجب علينا الانتظار حتى يزوغ شمس اليونان قبل ان نرى الصائتات والصامتات تكتب على حد سواء..

فلا حاجة بعد ما ذكرناه للتنويه بما يعترضنا من صعوبة في تأويل نصوص لا نعرف قواعد الصرف والنحو فيها معرفة دقيقة وقد تمثل نفس الحروف فيها صيغاً او الفاظاً مختلفة تمام الاختلاف. فالتشديد على ما له من الاهمية في الصرف لا نجد له اثراً بادياً في الكتابة . يضاف الى كل هذا انه ليست لدينا اية تقاليد من التعليم الشفوي تيسر علينا معرفة النطق الصحيح (كما في العربية والعبرانية مثلاً) . فلا نملك سوى اشارات نحصل عليها عن طريق المقارنة باللغات السامية الاخرى ، او عن طريق اعلال الافعال الناقصة الخ. . . فتساعدنا على استخلاص المعنى من خلال كتابة ناقصة .

هذه الملاحظات تساعد على قدر هذه النصوص قدرها وادراك ما يبقى في تأويلها — والمتشائمون يقولون : ما يسود تأويلها — من ارتياب وتردد . ولا عجب في الامر بل ينبغي علينا ان نُعجب بما قام به الرواد من اشباه السيد ڤيرولو (Virolleaud) من شق الطريق ، فلا لوم ولا تثريب ان رأى العلماء اليوم هجر كثير من تأويلاته .

لا يزال امام الباحث الاوغاريتي سبيل الى الشعور بنشوة الاكتشاف في هذا الحقل الجديد وبغبطة الاستنباط وصوغ الافتراضات المثمرة ؛ وان كان لا يجهل انه آتٍ بعده حتماً من سيتجاوزه ويسبقه فانه يعلم ايضاً ان المجهود الذي يقوم به يمكّن الخلف من مجاوزته واستباقه .

روما ، تشرين الاول سنة ١٩٥٠
المعهد الكتابي البابوي